

التفسير المختصر - سورة النور (٢٤) - الدرس (١٠-٠٧) : تفسير الآيات ٣٦ - ٣٨ ، في بيوت أذن الله أن ترفع وينظر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والأصال.....

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-١٩٦١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْتمعون القول فَيَبْتَعُونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلُنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

أيها الأخوة الكرام، فالآلية السادسة والثلاثون من سورة النور وهي قوله تعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ (٣٦) رَجَالٌ نَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةً وَلَا يَبْيَعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَنَقَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾

(سورة النور)

أولاً ؛ في بيوتِ، هذه الكلمة جاءت جمعاً ونكرةً، فالتنكير للتعظيم والجمع للتعدد، ينبغي أن يكون في كل مكان بيت الله عز وجل، وحاجة الناس إلى الدين ك حاجتهم إلى الهواء، فلو أننا أنساناً مجمعاً سكيناً فأول شيء؛ يحتاج هؤلاء الذين قطناً هذا المجتمع إلى بائع يبيعهم الحاجات الأساسية، وإلى قصاب، وإلى بقال، وإلى طبيب، وإلى مستوصف وإلى مدرسة.. إلخ ؛ هذه حاجات دنيوية، وإن أشد حاجة للإنسان وهو في الدنيا مكان يترعرف فيه إلى الله عز وجل، لذا أول شيء فعله النبي عليه الصلاة والسلام حينما هاجر إلى المدينة أنشأ مسجداً، وقبل بيته الشخصي، وكان ضيقاً في بيت سيدنا أبي أيوب الأنباري، أقام ضيقاً وأنشاً مسجداً، لذلك قال تعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ (٣٦) رَجَالٌ نَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةً وَلَا يَبْيَعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَنَقَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾

(سورة النور)

يجب أن يكون في كل مكان بيت من بيوت الله، والمسجد أليها الأخوة له أخطر دور في المجتمع الإسلامي، وفي مجتمع الانحطاط والتبعثر والتخلف والتشدد، وضعف الإيمان بقي المسجد

لِإِقَامَةِ الشَّعَائِرِ التَّعْبُدِيَّةِ، مَعَ أَنَّ مُهِمَّةَ الْمَسْجِدِ أَخْطَرُ بِكَثِيرٍ مِّنْ أَنْ يُصْلَى فِيهِ، وَأَقْلَ مُهِمَّةً لِلْمَسْجِدِ أَنْ يُصْلَى فِيهِ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(ما جلسَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله...))

فَهَذِهِ إِشارةٌ إِلَى أَنَّ أَخْطَرَ مُهِمَّةٍ هِيَ تَعْلِيمُ كِتَابِ اللهِ، وَأَنَّ يَعْرَفُ الْإِنْسَانُ مُهِمَّةَ فِي الْحَيَاةِ، وَسِرَّ وُجُودِهِ، وَغَايَةَ وُجُودِهِ، وَأَنَّ يَتَعَرَّفُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، وَإِلَى مَنْهَجِ رَبِّهِ، وَإِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَإِلَى سِيرَةِ أَصْحَابِهِ، وَهَذِهِ مُهِمَّةُ الْمَسْجِدِ، وَالْكَلْمَةُ جَاءَتْ جَمِيعًا؛ لِتَأكِيدِ تَعْدُّدِ بَيْوَتِ اللهِ تَعَالَى، وَثَانِيًّا تَكْيِيرُ وَالتَّكَيِّرُ لِلتَّعْظِيمِ قَالَ تَعَالَى:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٣٢)

[سورة الحج]

وَقَدْ كَانَتْ بِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةُ بَادْنِي الْدَّرَجَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، كَانَتْ تَقْرُمُ الْمَسْجِدِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

((أَنَّ أَسْوَدَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً كَانَ يَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ يَقْرُمُ الْمَسْجِدَ فَمَا وَلَمْ يَعْلَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَوْتِهِ فَذَكَرَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ مَا فَعَلَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ قَالُوا مَاتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ أَفَإِنَا آذَنْتُمُونِي فَقَالُوا إِنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا قِصَّتُهُ قَالَ فَحَقَرُوا شَأنَهُ قَالَ فَدُلُونِي عَلَى قَبْرِهِ فَاتَّقِبْرَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ))

[رواہ البخاری]

فَالصَّحَابَةُ رَأُوا مِنْ ضَلَالَةِ شَأْنِهِ، وَقَلَّةَ قِيمَتِهِ لَا تَسْتَأْهِلُ أَنْ يُخْبَرَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ إِلَى قَبْرِهِ وَدُعَا لَهَا، فَأَيُّ إِنْسَانٍ يُقْدِمُ خَدْمَةً لِبَيْتِ اللهِ يَعْتَبِرُ مِنْ سَاهِمٍ فِي بَيْوَتِ اللهِ تَعَالَى، كَأَنْ يُكَبِّرَ الصَّوتُ وَالْإِضَاءَةُ، وَالتَّكَيِّفُ، فَاللهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّمَا يَعْمَلُ مَسَاجِدُ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَى اللهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَتَّدِينَ﴾ (١٨)

[سورة التوبه]

مَنْ يَعْمِرُهَا بِنَاءً، وَمَنْ يَعْمِرُهَا بِأَدَاءِ الصَّلَاةِ فِيهَا، إِقَامَةِ الدُّرُوسِ فِيهَا، وَالْمُجَمِعِ الْإِسْلَامِيِّ أُسْرَةً، فَهَذَا قَدْمٌ مَالُهُ، وَذَاكَ قَدْمٌ عِلْمَهُ، وَهَذَا قَدْمٌ قُوَّتِهِ، وَالآخِرُ سَعْيَهُ، قَالَ تَعَالَى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعُ﴾

(سورة النور)

لَمْ يَقُلْ تُبُنى ! يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَنَاءُ الْمَسْجِدِ عَالِيًّا لِيُتَنَاسَبَ مَعَ عَظَمَةِ اللهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَنَّا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ (١٨)

[سورة الجن]

لَا يَصْلُحُ الْمَسْجِدُ لِذِكْرِ أَيِّ مَوْضِعٍ غَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، لَا لِأَشْخَاصٍ وَلَا لِأَفْكَارٍ مُعاَصِرَةٍ، لَا لِلَّدْفَاعِ وَلَا لِلْهُجُومِ، فَهَذَا مِنْبَرُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا الْمِنْبَرُ لِهِ قُدْسِيَّةٌ كَبِيرَةٌ، وَأَيُّ إِنْسَانٍ صَدِّقَ الْمِنْبَرَ هُوَ نَائِبٌ عنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِبْلَاغِ الْعِلْمِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْعُوَ مَعَ

الله إلها آخر، دعوا الدنيا لأهل الدنيا، والمصالح للطريقات أما بيت الله فيه دعوة خالصة إلى الله عز وجل.

قال تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَابِ﴾ (٣٦)

(سورة النور)

فهل المعنى أن تقول سبحان الله سبحان الله؟ نعم هذا ممكناً، ولكن الأعمق من هذا أن تذكر فضل الله تعالى، وأن تتحدث عن أسمائه الحسنية، وعن صفاتاته الفضلى، وعن رحمته، وقذرته، وعلمه وكلامه وعن كمال رسوله صلى الله عليه وسلم، وعن صاحبته عليه الصلاة والسلام، وعن منهجه الدقيق، وموافق أصحابه البطولية.

قال تعالى:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَبَّلُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣٧)

(سورة النور)

هل تعني كلمة رجال في القرآن أنه ذكر؟ لا فكلمة رجل أكبر من أن تعني ذكراً، بل البطل، ما نوع رجولتهم؟ أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فهذا عرف مهمتها في الحياة، ولا شيء مهما كان عظيماً يشغل عن ذكر الله.

وكلمة تلهيهم هي من الله، والله أن تصرف إلى الخسيس عن النفيس وأن تشتعل بالفسور، وتدع اللب، وأن تشتعل بالأصداف وتدع اللائي وأن تشتعل بالدنيا وتدع الآخرة، فالإنسان يعمل في الدنيا، ويؤسس عملاً ومحلاً تجارياً، ويؤسس معملاً ومزرعة، ويتوظف وبينال شهادة عليا، فهذا كلُّه مباح من دون أن تشغل هذه النشاطات عن ذكر الله تعالى، وهذه هي البطولة، فما الله تعالى الله، وما لعبد الله لعبد الله فالصلوات تؤدى في المسجد، ودروس العلم يحضرها المؤمن ويبرم حياته عليها، فكثير من الناس يرمي حياته على الدنيا، وإن كان له فائض من الوقت يحضر مجلس علم! الأصل أن تطلب العلم، وأن تتعرف إلى الله، وتؤدي العبادات، وهذا هو معنى قوله تعالى:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَبَّلُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣٧)

(سورة النور)

فأله تعالى ما قال: ولا شراء، وإنما قال: ولا بيع، فالبيع محبب وفيه ربح، أما الشراء ففيه الدفع ! عطف الخاص على العام، عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقبل فيه القلوب والأبصار وهذا اليوم الذي وعد الله فيه عباده، قال تعالى:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوْقَعَتِهَا كَاذِبَةً (٢) خَافِضَةً رَافِعَةً (٣)﴾

[سورة الواقعه]

فإن الإنسان يكون في الأوج ويصبح بالحضيض وبالعكس.

أيها الأخوة، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِمُ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعُلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩)

[سورة المنافقون]

لا يمكن أن تلهي بالحسيس عن النفيس، النفيس هو معرفة الله تعالى ومعرفة منهجه، والتقرب إليه بالطاعة، والحسيس هي الدنيا، والدنيا حيفة طلابها كلابها، والدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق، يحكم فيه ملك عادل، وإن الله يعطي الصحة والمال والذكاء والجمال للثريين من خلقه، ولكن يعطي السكينة بقدر لأصنفائه المؤمنين.

قال تعالى:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَرِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٨)

(سورة النور)

هذا الوقت الذي تقطّعه من وقت الثمين لأداء الصلوات في المسجد، ولحضور مجلس العلم، هذا وقت سماه العلماء؛ زكاة الوقت، فكما أن المال تؤدي زكاته فيحفظ الله لك بقية المال من التلف، وفتك إذا أديت زكاته بحضور مجالس العلم يحفظ الله لك بقية الوقت من التلف، فقد ترتفع حرارة ابنك من طبيب لآخر إلى محلل ومصوّر، وتضع أثني عشر ألفاً، وفي النهاية يُقال لك: الأمر على ما يرام، وكل إنسان أدى زكاة وقته بأداء العبادات باتفاق، وطلب العلم الشرعي، فإن الله تعالى يحفظ له بقية وقته، قال تعالى:

﴿فَإِمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَيُسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَإِمَّا مَنْ بَخْلَ وَأَسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَيُسِّرُهُ لِلنَّعْسَرَى (١٠)﴾

[سورة الليل]

هذا قانون التيسير والتعسیر، لذا كلام العوام من أن فلاناً محظوظ ذاك يده خضراء، هذا كلام لا أصل له، فالتيسيير والتعسیر لها قانون فالذي يؤدي زكاة وفته يطرح الله له البركة في وقته، ويقوم بأعمال تكليف الساعات الطوال بساعة واحدة ! فمن صلى الصلاة بوقتها بارك الله له بوقته.

قوله تعالى:

﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَبَّلُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾

(سورة النور)

هذه الآية متعلقة بالوقت فهذا الإمام أبو حنيفة أحد أسباب طلب العلم هو اطلاعه على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاده أنه من طلب العلم تكفل الله له بربقه ! فأنت لن تجد تحت الوسادة ألف ليرة، ولكن الله تعالى يوفقه لعمل جهوده قليل ومردوده كبير، فهذا هو معنى تكفل الله

له بِرِزْقٍ، فطالُبُ الْعِلْمَ مِرْزُوقٌ، وَمِنْ سَلْكَ طَرِيقًا يُلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْبَحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رَضَى بِمَا يَصْنَعُ، فَالَّذِي يُؤَكِّدُ إِنْسَانِيَّتَكَ طَلْبُ الْعِلْمِ، وَلَا يَوْجَدُ إِنْسَانٌ يُؤْثِرُ جَانِبَ اللَّهِ إِلَّا وَيُعْطِيهِ اللَّهُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ، مِنْ آثَارَ دُنْيَاكَ عَلَى آخِرَتِهِ خَسْرَهَا مَعًا، وَمِنْ آثَارَ آخِرَتِهِ عَلَى دُنْيَاكَ رِبَحَهَا مَعًا.

فَالْقَصْدُ أَنْ يَغْتَمِ الْإِنْسَانُ وَقْتَهُ فِي مَعْرِفَةِ رَبِّهِ وَمَنْهَجِهِ تَعَالَى، وَمَعْرِفَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا سُرُّ وُجُودِهِ؟ وَغَايَةُ وُجُودِهِ، وَكِيفَ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي؟ وَكِيفَ يُرِبِّي أُولَادَهُ؟ وَكِيفَ يُزَوِّجُ؟ فَالنَّاسُ يَقْعُونَ فِي الْحَرَامِ وَالظُّلْمِ، وَالْمَصَائِبُ تَأْتِيهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَهَلِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِالْتَّالِي بِخَرْوَجِهِمْ عَنْ مَنْهَاجِ اللَّهِ، وَبِالْتَّالِي تَحَمَّلُهُمُ الْعِقَابُ الْإِلَهِيُّ، لَذَا لَا بدَّ مِنْ طَلْبِ الْعِلْمِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَهَذَا مِمَّا كَانَ اخْتِصَاصُكَ، وَوَظِيفَتُكَ قَالَ تَعَالَى:

﴿رَجَالٌ لَا تُهِيمُهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَبَّلُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾

(سورة النور)

أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى الدُّنْيَا أَنَّهُ مَنْ خَدَمَنِي فَاخْدُمْهُ وَمَنْ خَدَمَكَ فَاسْتَخْدِمْهُ وَمَا أَحَبَّ عَبْدُ الدُّنْيَا إِلَّا انْفَرَطَ مِنْهَا بِثَلَاثٍ ؛ شُغْلٌ عَنَاهُ، وَأَمْلٌ لَا يُدْرِكُ مُنْتَهَاهُ وَفَقْرٌ لَا يَبْلُغُ غَنَاهُ ! وَإِنَّ أَسْعَدَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَرْغَبُهُمْ عَنَهَا، وَأَشْقَاهُمْ فِيهَا أَرْغَبُهُمْ فِيهَا ! خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا شَئْتُ وَخُذْ مِنْ قَدْرِهَا هَمًا، فَحَجْمُ الْهُمُومِ يَتَنَاسَبُ مَعَ حَجْمِ الدُّنْيَا، وَقَدْ يَمُوتُ الْإِنْسَانُ بِالسَّكْتَةِ الْقَلْبِيَّةِ مِنْ جَرَاءِ الدُّنْيَا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ